(تفسيرُ الشَّيخِ البرَّاك)

القارئ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النحل:٩٠-٩٣]

الشيخ: إلى هنا، سبحان الله والحمد لله، لا إله إلا الله، الله أكبر.

{إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} هذه من الآيات الجوامع، لأن مضمونها معنى واسع يدخل فيه كثير من..، بل لعله يدخل فيه جميع الأوامر والنواهي، يدخل فيه الأمر، التوحيد فإنه أعدل العدل التوحيد هو أعدل العدل، والشرك أظلم الظلم، وما يتبع ذلك من أنواع العدل، العدل بين الناس بالحكم بينهم، العدل بإعطاء كل ذي حق حقه، يدخل فيه العدل بين الناس في أهل الخصومات، يدخل فيه العدل بين الأولاد وبين الزوجات، وكذلك الحكم بين المختلفين {وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى} [الأنعام:١٥٢]، والإحسان يدخل فيه جميع أنواع الإحسان، الإحسان إلى الخلق {وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى} [النساء:٣٦]، والإحسان إلى الخلق بالأقوال والأفعال {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا} [البقرة:٨٣] {يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى} إيتاء القرابات حقوقهم {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} {فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ} [الروم:٣٨] وهذا يدخل فيما سبق فإيتاء ذا القربى حقَّه هو من الإحسان، داخل في معنى الإحسان، والإحسان سواء كان واجبًا أم مستحبًا كله داخلٌ {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}.

{وَيَنْهَى} ضد ذلك {عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} الْفَحْشَاءِ: هي كل فعل أو قول مُستَشْنَع شديد القبح، سُمي في القرآن جاء لفظ الفحشاء مرادًا به الزنى وفعل قوم لوط {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً} [الإسراء:٣٢] {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ} {وَالْمُنْكَرِ} عام في جميع المنكرات، فالفحشاء والمنكر قابلَهم الله بالعدل والإحسان {يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ} {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ}، {وَالْبَغْيِ} البغي هذا ضد الإحسان، البغي فيه عدوان وظلم {يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} الأوامر والنواهي هي مواعظ من الله {يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}.

{وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} وهذا كله معطوف على ما قبله وداخل فيه، {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ} فإن هذا من هو من العدل، الوفاء بالعهود من العدل؛ لأنه داخل في العدل {إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}، وفي ذِكرِ علم الله ترغيب وترهيب، ترغيب في الوفاء بالعهود والترغيب في امتثال الأوامر، وترهيب من المخالفة {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}، فافعلوا الأعمال الصالحة، واحذروا من الأفعال المنكرة والقبيحة {إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}.

ثم أكَّد الأمر بالوفاء بالعهد والتحذير من النقض قال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ} كأن هذا نوعُ مثلٍ ضربه الله لمن يَنْكثُ العهد بعد توثيقه وتأكيده {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}، قال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا} فمثَل هذا الذي مثل امرأة تغزل وتُحكم الغزل، ثم ترجع وتنقض ما فعلت، {وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ} بعدما تُحكمه وتُجوِّده ترجع فتُفسد، فتُفسد عملها، وهذا فساد في العقل والدين هذا فساد في العقل والدين، أما المرأة التي تفعل هذا فهي فاسدة العقل، حتى التي تُحكِم غزلها ثم تنقضه هي مخالفة يعني تُفسِد هذا يتضمن إفساد المال مع ما فيه من فساد العقل هذا جهل وسفه، {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} فالواجب الوفاء بالعهود مع..، الواجب العدل دون مُحاباة لقوي على ضعيف ودون مراعاة للقوي دون الضعيف، فيجب الوفاء بالعهود مع القوي والضعيف، كل هذه الواجبات يجب التعامل بها مع كل أحد، وهذا من العدل، أما الوفاء بالعهد مع طائفة ومع جماعة ومخالفة ذلك مع آخرين فهذا حَيْفٌ وجور خلاف ما أمر الله به من العدل.

نعم يا مُحَمَّد.

(تفسير السعدي)

القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي –رحمه الله تعالى– في تفسير قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ} الآية.

فالعدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده

الشيخ: في حقه كالتوحيد وامتثال أوامره –سبحانه–

القارئ: فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة مُوفَّرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل والٍ ما عليه تحت ولايته سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك

الشيخ: يعني مثل الوفاء بالعقود {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة:١]، فهو داخل في العدل، نقض العقود وعدم الوفاء بها أو بشروطها هذا جور وضد وخلاف العدل، يدخل في ذلك.

القارئ: فلا تبخس لهم حقًّا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحبة وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى –وإن كان داخلًا في العموم– لتأكُّد حقهم وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب قريبهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحقَّ بالبر.

الشيخ: يدخل في ذلك بر الوالدين، إيتاء ذي القربى أول ما يدخل فيه بر الوالدين، أقرب القربى الوالدان، وقد جاءت الدالة بتأكيد حقِّهما، فهي أَولى حق الوالدين أولى ما يدخل في قوله: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ} {وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى}

القارئ: وقوله: {وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ} وهو كل ذنب عظيم استفحَشَتْهُ الشرائع والفِطَر كالشرك بالله والقتل بغير حق والزنا والسرقة والعجب والكبر واحتقار الخلق وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالبغي كل عدوان على الخلق في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي فهي مما نهى الله عنه، وبها يُعلَم حسن ما أمر الله به وقبح ما نهى عنه، وبها يُعتبَر ما عند الناس من الأقوال وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: {يَعِظُكُمْ} به أي: بما بينه لكم في كتابه بأمركم بما فيه غاية صلاحكم ونهيكم عما فيه مضرتكم {لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} ما يعظكم به فتفهمونه وتعقلونه

الشيخ: الوعظ ليس خاصًّا بذكر الترغيب والترهيب والوعد والوعيد، بل نفس الأوامر والنواهي فيه عِظَات، ولهذا جاء هذا المعنى في مواضع منها هذا، {وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} [الطلاق:٢] {ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ} فهذا في مواضع يسمي الله أوامره ونواهيه يعني عظات ومنها هذه الآية.

القارئ: فإنكم إذا تذكرتموه وعقلتموه عملتم بمقتضاه فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

الشيخ: الله أكبر!

القارئ: فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا}

الشيخ: ما يجب بالعقود والعهود يرجع إلى تسبُّب الإنسان، الذي ما شرى ولا باع ولا وعد ولا عاهد ولا شيء في عافية ما أوجبَ، ومثل ذلك النذر يدخل في ذلك النذر؛ لأنه عهد بين العبد وربه فيدخل في هذه الآية كل النذور التي ينذرها الناس وجميع العقود في جميع الشؤون والوعود كلها {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا} العقود كلها عقود البيع والتجارة وعقد النكاح داخلٌ فهو عهد مُلزِمٌ يترتب عليه حقوق. ولما ذكر

القارئ: فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ} الآيات:

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها إذا كان الوفاء بها برًّا، ويشمل أيضًا ما تعاقد عليه هو وغيره كالعهود بين المتعاقدَين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: {وَلا تَنْقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا} بعقدها على اسم الله –تعالى–: {وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ} أيها المتعاقدان {كَفِيلًا} فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلًا فيكون ذلك ترك تعظيم الله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلًا. فكما ائتمنك وأحسن ظنه فيك فَلْتَفِ له بما قلته وأكدته.

{إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} يجازي كل عامل بعلمه على حسب نيته ومقصده.

{وَلا تَكُونُوا} في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وأذلّها على سَفَهِ متعاطيها، وذلك {كَالَّتِي} تغزلُ غزلًا قويًّا فإذا استحكم وتمَّ ما أريد منه نقضته فجعلته {أَنْكَاثًا} فتعبت على الغزل ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء وسفاهة العقل ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه فهو ظالم جاهل سفيه ناقص الدين والمروءة.

وقوله: {تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ} أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم تعقدون الأيمان المؤكدة وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفًا غير قادر على الآخر أتمها لا لتعظيم العقد واليمين بل لعجزه، وإن كان قويًّا يرى مصلحته الدنيوية في نقضها نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه.

كل ذلك دورانًا مع أهوية النفوس، وتقديمًا لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية لأجل أن تكون أمة أكثر عددًا وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قيَّضَ من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

{وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} فيجازي كلًّا بما عمل، ويخزي الغادر.

{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}.

أي: {لَوْ شَاءَ اللَّهُ} لجمع الناس على الهدى وجعلهم {أُمَّةً وَاحِدَةً} ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلًا ويمنعها من لا يستحقها عدلًا. {وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} من خير وشر فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

الشيخ: أحسنت، جزاكم الله خيرًا، لا إله إلا الله، له الحكمة البالغة أن جعل الخلق أصنافًا وأنواعًا في جميع أحوالهم {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} فالخلق كلهم تجري أمورهم -بل الكون كله يجري- على وفق مشيئة الله بحكمته البالغة له الحكمة البالغة {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [النحل:٩٣] و{يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ} [الرعد:٢٦]، ويضيقه على من يشاء {يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ} [الشورى:٤٩] فمشيئة الله نافذة في هذا الوجود {لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} [الرعد:٤١] ولا رادَّ لقضائه، لا إله إلا الله، فينبغي للمسلم أن يستشعر هذا الأمر سريان القَدَرِ في كل صغير وكبير، كلُّ صغير وكبير {وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ} [يونس:٦١] كل ما في هذا الوجود من حركات، الجمادات أو الحيوانات كل ما في هذا الوجود فهو جارٍ على وفق مشيئة الله الشاملة النافذة وحكمته البالغة، لا إله إلا الله، وهذا المعنى يُثنّى

في القرآن هذا المعنى {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ} جاء في عدد من الآيات {لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} ولكن {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} يعني {يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى.